

وأزال الهم عن نفسه . وذلك المنام هو أنه رأى ميرزا شافى رئيس الوزارة الفارسية مطروحاً على الأرض والجلادون يضربونه على قدميه . وقد فسر محمد بك هذا المنام بأنه دلالة على هلاك عدوه .

وأرسل إلينا وزير الخارجية الانكليزية مترجماً آخر غير الذى بعث به معنا السفير الانكليزى فى فارس . على أن معرفة المترجم الثانى بلفتنا كانت معرفة صحيحة ، فهو فيها كأحسن المنشئين ؛ وقد قرأ كل كتبنا الشهيرة ، وتجربى على لسانه أبيات حافظ والسعدى كما تجربى آيات القرآن على لسان المسلمين

وكاد السفير يكون سعيداً برؤية مترجمه الجديد لولا أن محادثتهما دلت على جهل سفيرنا بشئوننا الخاصة وبلفتنا نحن وبتاريخنا بالقياس إلى معرفة المترجم ...

وأخبرنا ذلك المترجم بأن وزير الخارجية الانكليزية ورئيس الوزارة سينوراننا ، فقلنا فى أنفسنا كيف يأتيان لزيارتنا دون اشتراط شروط فيما يتعلق باستقبالنا لهما وموعد هذه الزيارة ؟ إن هؤلاء الانكليز بلاريب لا يحفظون كرامتهم ، فإن أحدهما لا يزور — وهو فى مثل هذا المركز — إنساناً دون أن تسبق الزيارة مفاوضات طويلة . فعندما وصل السفير الانكليزى إلى طهران أبى رئيس الوزارة أن يزوره إلا بشروط خاصة . وانتهى الأمر بينهما بعد المفاوضة على أن تكون الزيارة فى منزل رجل ثالث محايد . أما الوزراء هنا فإنهم يلقون بأنفسهم فى أفواهنا دون أن تتكلف فتح هذه الأفواه

حاجى بابا فى الحكمة

تأليف جيمز موير
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل التاسع عشر

وزير السطيرى بزر السطير

قضينا معظم الليلة فى لندن بغير ندم لأننا كنا ننظر إلى كل شيء حولنا ونحاول أن نفهمه

وكان فى غرفة نوي ستائر من قماش ممائل للأحزمة ولكنه أرق منها . وكانت أعطينا ثقيلة جداً لم نعتد مثلها فى بلادنا ، وقد تعبنا فى معرفة مواعيد الصلاة لأن الساعات عندهم لا تدار على الحساب العربى إذ الشمس لا تؤثر فى جوم مثل تأثيرها فى جونا ، فقد تكون الشمس مشرقة منذ ساعة ولكن لون الليل لم يتغير . وقد يكون باقياً ساعة على الغروب ولكن الأصيل فى لون الليل . وليس هناك مؤذنون ولا مساجد . ولا شك أن تقسيم النهار والليل عندهم ليس كما هو عندنا فإن ليهم طويل جداً ولا تهدأ الأصوات فى أية ساعة من ساعات الليل . وكانت الأجراس تدق بين حين وآخر . وكنا نحسبها أذاناً أفرنكيّاً فقط ، ولكننا وجدنا الأمر على خلاف ذلك لأنه يستحيل أن تكون الصلوات فى دينهم بهذه الكثرة

ولما استيقظنا فى الصباح قال لنا السفير إنه رأى مناماً وقصه علينا ففسره محمد بك تفسيراً أرضاه .

فأكد الوزير الانكليزي للسفير أن كل شيء سيكون وفق رغبته مع رعاية التقاليد الانكليزية . ولكن بما أن مقابلات ملك الانكليز لا تكون إلا في أوقات محدودة فيحسن الصبر قليلاً حتى تمكن هذه المقابلة

دهش ميرزا فيروز من ذلك وقال : إن الشاه الفارسي مستعد للمقابلة كل يوم ، فهو يجلس كل صباح على عرشه فيقبل عليه العلماء والوزراء ورجال الدولة والأعيان وكبار الأجانب وكل من يشير عليهم المنجمون بأن الساعة ملائمة لمقابلة الشاه قال الوزير الانكليزي : إنه يأسف لأن النجوم في سماء انكلترا لا تستطيع تحديد الساعات لمقابلة الملك ، فإن هذا ليس من شأن النجوم بل من شأن كبير الأمناء

وأدهشنا الوزير أكثر من ذلك بقوله : إن مقابلة الملك لا تطول ، وقد لا يستغرق استقباله دقيقتين أو ثلاثاً ، وإنه لا تاتي أمامه خطب ولا يقال شيء إلا بعد عرضه على كبير الأمناء ووزير الخارجية بالنسبة للسفراء ، فامتعض السفير من ذلك ولكنه كتم امتعاضه

وبعد أن خرج من عندنا الوزير قال : « ما هذه المصائب التي وقعت على رأسي ؟ إنني افتضحت ما بين الرجال ، وسيبيع الشاه أبنائي إلى التركمان لو علم أنني سودت وجهه إلى هذا الحد ، وسيحرق قبر أبي وأمي » . ثم التفت إلينا وقال : « أشيروا علي ماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لقد اسود وجهي . وشاهنا مستبد وهو لا يبالي برؤوس الرجال إلا كما يبالي الجزائر برؤوس الغنم »

فقلت : « الحق في جانبك يا جناب السفير ،

لكننا قبل كل شيء فارسيون ومن الذي ينكر على الفارسي تفوقه !

وجاء الوزير الانكليزي وليس معه غير تابمين اثنين ، وقد جلسا أمامه قبل أن يستأذناه ، فقلنا ما أعظم الفرق بين وزرائنا وهؤلاء الوزراء ! إن الوزير عندنا رجل عظيم له روعة وصوله فهو لا يخرج من القصر إلا محاطاً بمئات من الخدم ولا يخرج موظف تابع له على الجلوس أمامه بغير إذنه ، ولا يحويه إلا بأن يقبل طرف ثوبه وهو جاث على ركبتيه ، وإذا جرؤ أناس على المشي أمامه ضربهم الفراشون حتى يتشقق لحمهم وصودرت أملاكهم وتخربت منازلهم . إن الوزير عندنا يقول للشمس اشرق فتشرق ، ويقول لها غيبي فتغيب

أما هذا الوزير الذي زارنا فإنه مسكين لا عظمة في نفسه ولا شتم . وقد جاء لجلس في أقرب مكان . ولكن نظرات عينيه كانت شديدة التأثير ، فلو أنه في بلادنا لسميناه عين الدولة . وهو فصيح تتدفق الكلمات من فمه تدفق السيل ، فلو كان في بلادنا لسميناه لسان الدولة . ولكنه مع فصاحته وتأثير عينيه لا يصلح مطلقاً للحكم لفقدان هيئته . وقد أكد لنا أنه لا يفرق في المعاملة بين أحد الانكليز وبين أحد المنبوذين الهندوكيين ، ففهمنا من هذا التعبير أنه لا يفرق أيضاً بين الخطأ والصواب ولا بين الحق والباطل

طلب سفيرنا إلى وزير الخارجية الانكليزية أن يقدمه للشاه الانكليزي في أقرب الأوقات لكي يقدم إليه خطاب الشاه الفارسي والهدايا المرسلة إليه وقال إنه ما كان يظن أن يتأخر كل هذه المدة دون أن يقدم للشاه مع أنه مندوب ملك الملوك شاه إيران

التي قد تقع أحياناً بين الملوك . ونحن لا نعرف هل فهم الوزير ذلك أم لم يفهمه . ولكنه على كل حال لم يراع اللياقة ، فانه لم يشرب إلا قطرة من الفنجان الحلو ثم رده ، فلما تقدم إليه الفنجان المر عافه وصار شكل وجهه مضحكا

لكننا علمنا بمجيء رئيس الوزارة قبل الزيارة بوقت كاف ، ولذلك استعدنا استعداداً كافياً ، فصنع لنا حسن الطباخ أصنافاً متعددة من البقلاوة وأصنافاً أخرى من الحلوى فيها اللحم والخضار مصنوعين بالمسل والدقيق إشارة لامتزاج جميع المصالح بين فارس وبين بريطانيا ، وأعد كذلك عدة أنواع من الشراب الذي امتازت به فارس

وكانت بعض زجاجات الشراب قد كسرت في طريق السفر فأفرغ الطباخ ما بها في أوان من الصاج بمضها أبيض اللون والبعض ذو ألوان أخرى . وقد وجدنا هذه الأواني بأماكن متعددة من المنازل الانكليزية التي نزلنا فيها . فلما رأى المترجم هذه الأواني وفيها الشراب أغرق في الضحك . ولما أخبرنا عن نوعها وما تستعمل له سترنا وجه الحجل بنقاب الجهل وحمدنا الله على أننا لم نشرب منها ولم نمرضها أمام رئيس الوزارة

أخيراً جاء رئيس الوزارة وهو في ثوب أسود كالذي يرتديه وزير الخارجية ، وليس هناك أي فارق بين الرؤوس وبين رئيسه . وقد أخبرنا المترجم أن هذا الثوب هو الذي يرتدونه أمام شاههم . وإنهم يرتدونه الآن إجلالاً لسفيرنا

وكان شكل رئيس الوزارة كشكل الدراويش فهو متواضع رقيق . وانه ليدهشنا أن تدار شئون دولة كبيرة بيد درويش مثل هذا . ففي بلادنا يكون

ولكننا فارسيون مسلمون ، فاذا حلت بنا نعمة فاذا نفعل ؟ لا شيء ! ويجب ألا نلوم أحداً فهذا هو القضاء والقدر . وإن شاهنا مستبد بغير جدال ، ولكن هل هو مع استبداده يستطيع أن يُنزل بنا ما لم يكتبه الله علينا في اللوح المحفوظ ؟ »

قال محمد بك : « لقد أصاب حاجي بابا يا جناب السفير فان القدر لا مناص منه . إننا نأكل ونشرب ونحيا ونموت بقدر سابق لا شأن لاختيارنا وأعمالنا فيه . وإذا كان مقدراً علينا ألا نرى الشاه الانكليزي إلا بعد بضعة أيام فاذا في استطاعتنا غير الصبر ؟ »

فقال السفير : « وإذا كان في هذا التقدير أن تقطع رأسي فاذا إذن ؟ »

فقال محمد بك بهدوء : « لا يكون شيء ! لنقطع رأسك إذن »

قال السفير : « ما شاء الله ! ألا أحاول حفظ رأسي على الأقل ! قل كلاماً آخر وإلا فاني أقسم بذقن الشاه أن أجعل رأسك في مكان رجلك »
ولما رأينا حالته وصلت إلى هذا الحد تركناه لأننا نعلم ماذا يصدر عنه إذا انفجرت في صدره مراحل الغضب

الفصل العشرون

رئيس الوزارة الانكليزية

كانت زيارة وزير الخارجية قصيرة جداً ولم تكن منتظرة ، ولذلك لم نستطع القيام بواجب ضيافته . ولو أنهم أهلوا هذا الواجب فلم تقدم له غير القهوة الحلوة علامة على حسن الشعور والمودة بين البلدين ، ثم القهوة المرة علامة على انتهاء الجفوة

إيران : وقد صدقناه لما تذكرنا صناعة السفن في افكترا وماتستازمه من الأخشاب ، مادامت سفنهم على الشكل الذى رأيناه

وفى جملة من زارنا من وزرائهم وزير البحرية ووزارته من أكبر الوزارات . وبالرغم من أن كثيراً من المدن الفارسية مثل بوشير وهرمز واستراباد ورشت وغيرها واقعة على البحر فاننا فى بلادنا لا نكاد نعرف ما هى السفن . وسيمتقد الفارسيون عند ما نعود إليهم ونحدثهم بما رأيناه أننا نتلو عليهم قصة من ألف ليلة وليلة

وزارنا موظفون آخرون لم نستطع فهم أعمال كل واحد منهم ، فقد قيل عن بعضهم إنه فى قصر الشاه ، وعن البعض أنه موظف بغير وظيفة ، وهو فضلا عن ذلك غير خاضع للحكومة بل رقيب عليها ، وامم هذا الصنف من الناس نواب البرلمان . ونحن نأمل فى المستقبل أن نعرف الفروق بين بعضهم والبعض الآخر فانهم فى نظرنا رجل مكرر ، فتحياتهم واحدة وأخلاقهم واحدة وثيابهم كذلك

ومن بين الذين زارونا رجل اهتممنا به اهتماماً كبيراً بالقياس لمكانته بمكانة نظيره فى فارس وهذا هو رئيس التشريعات

لكنه تبين لنا أن الفارق عظيم بين الرجلين ؛ فرئيس التشريعات فى فارس يجب أن يكون من أسرة القاجار وهى الأسرة المالكة المشهورة بمجسامة لحاها . وقد أنعم الله على رئيس التشريعات الموجود الآن فى فارس بلحية تكاد تكون أكبر من لحية الشاه نفسه . وهو يرتدى لباساً خاصاً ويتكلم بلهجة خاصة . ومعرفته بأنواع التحيات وضروب التملق لا تملأها معرفة . ولكن التشريعاتى الانكليزى

الشاه (كما يقول المترجم) رئيس وزارة نفسه وهو يضطر لتأييد نفوذه إلى سفك كثير من الدم فى أول عهده بالحكم لى يهاب . وفى تركيا عند ما يعين الصدر الأعظم وهو رئيس الوزارة عندهم ؛ فانه يبدأ عهده باقامة المشائق وإعدام بعض أغنياء المسيحيين أو اليهود . ولكن رئيس وزارة الانكليز كما قال لنا بلسانه لم يقطع ولا يد لى ، ولم يبدق أذن بائع على باب حانوت

قدمنا إليه طعام الافطار وهو شهى كما وصفته ولكن العجيب المدهش أنه لم يوافق فامتنع عن الأكل . وصار السفير يقدم له أحسن الأجزاء بأصابعه فيمتدح ؛ وقد ساءنا ذلك كل الاستياء لأنه من يصدق أن الذى يأكل لحم الخنزير لا تعجبه البقلاوة ؟

لكن هؤلاء الانكليز قوم مدهشون حقاً زارنا بعد ذلك عدد من وزراء الانكليز على التتابع ؛ وقد ظهر لنا انهم لا يعرفون مهمة الوزير ولا يعرفون أى شىء عن نظم الحكم ؛ فن أمثلة ذلك أن لديهم وزيراً للغابات !

وقد ضحكنا عند ما سمعنا ذلك ضحكا شديداً لأن الغابات عندنا فى فارس لا تساوى أجر خفير بحرسها فضلا عن أن يخصصوا لحراستها وزيراً ؛ ولكنهم فقراء ، والوقود عندهم عزيز جداً لشدة البرد فى بلادهم فى الشتاء . وهم مع فقرهم مسرفون ، فلو أراد الشاه أن يجعل حكومته وفق نظام الحكومة الانكليزية لعين وزيراً للصحارى ليحصى ما فيها من النخيل والمضاب والذئاب

ولما قلنا ذلك للمترجم قال إن الغابات فى انكلترا ضرورية لوجودها كضرورة الخيول والسيوف فى

هؤلاء بما يرضى به ملوكهم ، ولكننى أعرف الشاه الذى أمثله . إن شاهي يتربع على أقدم عروش العالم . وإذا كنت تريد أن تعرف من هم جدوده فإنى أعدد لك من عهد نوح . وكيف تقرون أسماء ملوكهم باسم ملك فارس ؟ إننا إلى الآن لم نسمع بأسمائهم فعليكم أن تعرفوا فضلنا عليكم وتكفوا عن حماقتكم

قال المترجم : « ما هذه الكلمات ؟ هل تريد أن تغير عوائد البلاد ؟ وإذا اختار شاهكم أن يرسل لحيته فهل هذا يلزم ماسكنا أن يفعل مثله ؟ أليس لكل أمة عواندها ؟ »

فقال السفير : « لما جاء سفيركم إلى طهران قابلناه بمقابلة لا أتنازل عن مثاها . لقد ذهب إليه عم الملك لاستقباله . وكانت الجنود على الصفين تؤدى له التحية ما بين مسكنه وبين القصر ، وأقيمت قطع السكر تحت حوافر جواده ، وصدحت الموسيقى ورفعت الأعلام فى السوق وأمر الناس بأن يؤدوا له واجب الاحترام وسمح له بالوقوف أمام الشاه . وأنى لأقسم بدقن النبي عليه الصلاة والسلام لأذهب إلى القصر الماسكى إن لم أقابل هذه المقابلة . وكيف أذهب كما يذهب أى فرد من الأفراد مع أنى ممثل ملك الملوك . لا بل إنى سأعود هذا اليوم وأسأل الله أن يحفظني من الالهانة التى أردتم إلهاى »

قال المترجم : « هذا مطلبك وقد يوافق عليه الملك . وسأبلغ أقوالك هذه لوزير الخارجية . ولكن الملك قد يرفض مقابلتك بتاتا بسبب هذه الشروط »

هاج السفير ووقف وكاد الشرر يتطاير من عينيه وقال :

« أجبنى فى الحال هل أنا سفير أم لا ؟ »

رجل لا مظهر له ولا وجهة ، بل هو نحيف قصير وقد كان السفير مدة زيارته ينتظر أن يقول شيئا عن مقابلة ملك الانكليز ولكنه لم يقل شيئا وبعد ثلاثة أيام أخرى سمح لنا بتلك الزيارة فحمدنا الله على ذلك

الفصل الحادى والعشرون

ملك الانكليز

لما تحدد موعد الزيارة هيأنا الهدايا وحررنا قاعة بأنواعها وحل السفير فى جيبه خطاب الشاه وأمر بتهيئة الخيول فصبغنا بالحناء بطوننا وذبولها ، ولكن محمد بك أجرى حسابا لتحويل التاريخ الأفرنكى إلى تاريخ عربى فتبين أن اليوم المحدد لهذه الزيارة « يوم أربعماء صفر » وهو يوم مشنوم عندنا نحن الفارسيين

ولما طلبنا إلى المترجم تغييره قال إن ذلك ليس فى الامكان ، فسأله السفير عن كيفية الاستقبال فقال إنه سيكون كاستقبال أى سفير آخر

قال السفير : « كيف ؟ » فقال المترجم : « ستذهب فى عربتك إلى القصر الملكى فيقابلك رئيس التشریفات ووزير الخارجية فتقدم أوراق اعتمادك إلى الأخير أمام الملك »

قال السفير : « وهل تظننى أكتفى بهذه المقابلة ؟ »

فقال المترجم : « لماذا لا تكتفى بها وهى التى يقابل بها جميع السفراء ؟ ثم ماذا تريد أن يكون غير ذلك ؟ »

قال السفير : « وماذا يهمنى من سائر السفراء ؟ إن فى العالم ملوكا كثيرين يمثلهم السفراء ويرضى

قال المترجم بهدوء وإن كان الغضب بادياً عليه :
« وهل ملكي ملك أم لا ؟ »

ثم سمعناه يقول بصوت خافت كلمة باللغة الانكليزية هي (دمن) وهذه كلمة كنت سمعتها في السفينة بين بعض البحارة والبعض كما سمعها السفير قال السفير : « هل تقول أني دم ؟ أنا دم ؟ أنت دم وأبوك دم ! لماذا أبقى عنا ليقال عني دم ؟ إنني رجل كبير الأهمية في بلادي ، وسأحرق قبر والدك لتعلم أنني لست دمن . إنني لم أقطع كل هذه الأرجاء لأسمع منك هذه الكلمة »

ففتح المترجم عينيه وفمه كالآبله ثم نظر إلى ساعته ، ووضع قبعته على رأسه ، وأدخل كفيه في قفازيه ، وأخذ عصاه وقال لنا : « أرجو ألا يقصر الله ظلكم » ثم ترك المنزل

ولما كنا معتادين رؤية السفير في أوقات غضبه فإننا لم نر فيها حدث شيئاً يخالف المعتاد لأنه كان يمثل دور المفاوض الماهر ، وهو يعلم أنه كلما زاد في التظاهر بالغضب كان أقرب إلى النجاح في المفاوضة حتى لا يشمت فيه خصمه ميرزا شافى

وبعد خروج المترجم أطربنا السفير وقلنا : إن الانكليز في حاجة إلى من يلقنهم درساً في حقوق السفراء . وقلت له : « هم يظنون أنه ما دام لديهم عربات وليس لدينا شيء منها ، وما دام ملكهم مسلحاً على الهند وليس لبلادنا بلاد أخرى تتبعها ، فهم أفضل منا . ويظنون أنهم بذلك قادرون على إكراهنا على ما لا نريد . ولكنهم واهمون وسنعملهم إن شاء الله بهمة سفيرنا كيف تكون العنابة بنا وقال محمد بك : « نعم . نعم ! الله أكبر إن

سفيرنا سيعلم الدين يا كاوان لحم الخنزير أن أكله حرام ! »

ثم صار كل واحد منا يقول ما يلهمه الله إياه من مدح السفير وذم الفرنجستان لتؤيد عظمة شاهنا في هذه البلاد

ولكن النهار انقضى ولم يعد المترجم ، وظننا الانكليز لم يقبلوا المفاوضة . وخشى فيروز خان أن يبلغوا الشاه بواسطة سفيرهم أنهم لا يقبلون زيارتنا للسكهم ، فيشمت ميرزا شافى ويفهم الشاه أننا أخفقنا لأننا أجهل من أبي جهل ، والتفت إلينا وقال : « ألم يكن ما قلته صواباً ؟ »

فأكدنا له أن ليس في الإمكان أحسن مما قال ، ولكنه صار يكرر هذا السؤال بين لحظة ، ولحظة ونحن نجيبه نفس الجواب

وأخيراً نفذ صبره فأرسلني إلى منزل المترجم لأدعوه إلي تناول العشاء معه في هذه الليلة وكنت أعرف أن أحد هؤلاء الفرنجة إذا غضب فلا يزول غضبه إلا باتباع سياسة تدل على المهارة ... ولذلك كنت أمشي نحو داره مفكراً غير مقدر النجاح . ولكن العجيب أنني وجدته هادئاً كأني واحد بعد انتهاء المشاجرة أي كأنه لم يحدث شيء . وقد قبل الدعوة للعشاء مع السفير

وعند ما وصل كنت مع ميرزا فيروز وكانت مقابلهما ودية كالعادة ، فوضع السفير يده على ظهر المترجم وقال : « ما شاء الله ! لقد برهنت على أنك رجل يا ميرزا . وهذا بلا ريب بعض ما استفدته من فارس . أما الذين لم يسافروا إليها من الفرنجستان فإنهم يفضيئون غضباً حقيقياً . إنك رجل يا ميرزا وقد عرفت كيف تبدأ بالغضب وكيف تنتهي منه .

لسنا بجانبكم إلا ألواحاً من الخشب ؟ إننا أمة متمدنية
من عصر أنو شروان ومنا جامشيد وجانكيز خان
ونادر شاه ومحمد أغان خان وفتح علي خان
أجابه المترجم على أقواله جواباً أرضاه ثم جرى
بالمشاء

الفصل الثاني والعشرون

ملك الانكليز

جاء اليوم الذي كنا نتمناه من عهد طويل
ولكن اسوء حظي كنت مصاباً بنقص في القلب
في ذلك اليوم ، فكانت مرافقتي للسفير في هذه الزيارة
من المحال واستأذنته في تركي بالمنزل . وأذن لي بغير
صعوبة . وأدهشني منه أنه سر بتخافي عن الحضور
ودلني ذلك على أنه لم يزل يعتبرني جاسوساً عليه لرئيس
الوزارة الفارسية

وكانت رؤية السفير في ذلك اليوم من المناظر
السارة فقد أتقن لبس ثيابه . والحق أن الفرنجة
لا يفهمون كيف يكون إتقان اللباس فنحن نعرف
ضروباً من لف الحزام ووضع الخنجر فيه بأشكال
لائقة جميلة ، ولنا أساليب في إمالة القلب وإخراج
خصل من الشعر من تحته ، وغير ذلك من التفتن
في الزي

وكان خنجر السفير وصيفه مرصعين بالجوهر
وعلى قلبه الريشة ، فقلنا عند رؤيته ما شاء الله ! «
ومشى السائس بعصاه الطويلة أمام جواد السفير
ووراءه رجالنا محيط بهم كوكبة من عساكر الانكليز
وعلى الصفين جنود انكليزية كان ضباطها يضجكون ،
وقد كان بعض المصورين في الطريق مستعدين
لالتقاط هذه الصورة البديمة

وكان في انتظار الموكب على باب القصر خان

ولقد قال حافظ : « إن الحب الصادق كغضب الأحمق
يستمر في الغليان بعد أن تزول أسبابه »
فأجاب المترجم : « أتمنى ألا ينتهي عهد صداقتنا ،
وقد أبلغت رغباتك إلى وزير الخارجية »

ظهر الاهتمام الفجائي على وجه السفير وقال :
« ماذا ؟ وما الذي قال ؟ » فقال المترجم : « إن
الوزير قال إنه لا يرى صعوبة في استقبالك كما تريد ،
فعندنا جنود كثيرة لا بأس من اصطفاك بعضها
على جانبي طريقك إلى القصر وعندنا عربات كثيرة
وأعلام أكثر »

قال السفير : « إن هذا عجيب جداً ! إن هذا
مدهش . إنني لا أفهم عقولكم يا معشر الانكليز
فأنتم لا تثيرون المصاعب ولا تتركون مجالا
للمفاوضات » فقال المترجم : « ذلك في الأمور
النافهة فقط »

قال السفير : « هل تعدون مقابلة السفراء أمراً
نافهاً ؟ إنكم لم تفعلوا عشر مائة له فارس . فهل كرامة
الموكب عندهم لا تعد شيئاً ؟ »

قال المترجم : « لقد كانت دول أوروبا في العصور
الماضية تعنى بمثل هذه الأمور النافهة . وكان المظهر
عندهم أجل من معناه

ولكنهم بعد ذلك رأوا أن نخامة الاستقبال
ليست هي الدليل على الود فتركنا كثيراً مما تمسكون
به اليوم ، وقد كان أجدادنا أكثر تمسكاً به منكم »
عند ذلك مشط السفير لحيته بأصابه وقتل
شاربيه وظهرت عليه علامت التفكير وشعر بأن
مكائنه عند الفرنجستان قلت ، مع أنه لم يكن يرجو
بالنشبت إلا زيادتها

وأخيراً صاح « وهل أنتم : تظنون الآن أننا

وقال محمد بك : « نعم فانك لما دخلت غرفته لم تخلع ثيابك ولم تر كعب ، فذلك مالا يجب علينا لغير الشاه الفارسي »

فقال السفير : « نعم ، ويظهر أن أتباعه أنفسهم لا يفعلون ذلك فليس في غرفته عرش ولا مكان لخلع النعال ولا مكان للسجود . وأنا وقفت على نفس البساط الذي كان الملك واقفاً عليه . وسلمته خطاب الشاه يداً بيد ، وقد وقف الملك على قدميه عند ما دخلنا وكنا كلنا في مجلس واحد . والحق أقول أن هذا الملك ليمد طفلاً بالقياس إلى ملكنا ؛ فليس في غرفته فلقة ولا مقرعة ولا سيف ولا في حاشيته جلاب . بل في اعتقادي أننا إذا أهنا الملك لما حوكننا في حضرته ، بل كانوا يسلموننا إلى من يحاكمنا فيما بعد كما لو كنا نهيئ أي إنسان

قلت : « إن مكانة الملوك حقيرة في هذه البلاد » فقال آق الدين : « نعم ويظهر أنك عقوبة الضرب على القدمين غير مسموح بها هنا »

قال محمد بك : « نعم وقد أخبرني المترجم الانكليزي بأنه وإن كان الذي يمتدى على ملك الانكليز لا يحاكم في حضرته ولكنه يمرض رقبته لحبل المشقة »

فقال الرياخور : « إذن فالحال عندما أحسن ألف مرة . إنني أفضل أن أضرب كل يوم لو شئتم الشاه على أن أعلق على المشقة من أجل كلمة أقولها » صاح السفير : « اسكت يا وغد ! لو سمعتك الشاه لقطع لسانك ! أخرج من هنا »

وكان الرياخور أغابك قد سمع كما سمعنا عند قدومنا إلى هذه البلاد ، أن الحرية مكفولة لكل إنسان وأنه لا يجوز القصاص إلا بوساطة القاضي ،

انكليزي كبير يقال له سكوتير الملك لم أستطع مرافقة الموكب كما تقدم فاكتفيت بأن أطل عليه من النافذة وهو ذاهب وسمعت وصف المراقبة من محمد بك . وقد أيقنت أن مقابلة الملوك في تركيا وفي فارس أروع من مثاتها في هذا البلد . وقد لاحظت أن شكل جيادنا أجمل وآنى من شكل الجياد الانكليزية فإن جياد إيران من جنس الجياد الروسية

انتظرت في صبر نافذ حتى رجع الموكب لأعرف تفصيل ما حدث في القصر . فقال لي السفير عند عودته : « لقد فانك منظر رهيب يا حاجي بابا . لقد فانك رؤية الشاه الانكليزي ! إنه أطيب الملوك كما يقولون . ولذلك بتفاني شغفه في محبته ، وقد أظهر لي من العطف ما ليس يظهره إلا الآباء لأبنائهم ولقد اتضح لي أن العادات في القصر تخالف أمثالها في بلادنا . ولكن الملوك ملوك أينما كانوا وعلى أية حالة كانوا ، فالهبة تنجلي على هذا الشاه الفرنجستاني كما تنجلي على ملك الملوك في طهران وقال محمد بك : « ولكن الفرق الوحيد أنك تقف أمام ملك الانكليز مطمئناً . أما الواقف أمام الشاه فإنه يخشى على رقبته من السيف ، وعلى رجله من العصا ، وعلى يديه من السلاسل . وقد رأينا الواقفين أمام ملك الانكليز كأنهم يقفون أمام زميل لهم

نظر السفير إليه وإلى سائر الأتباع الذين رافقوه في الزيارة وقال : « وهل تكلمت أمامه كلاماً حسناً ؟ » فصاحوا : « ماشاء الله ! إن أفلاطون ما كان ليقول أجمل من هذا » وقال السفير : « لقد عرفت كيف أمثل الشاه وأحافظ على كرامته

ولما طرده السفير أبين أن العقوبة حالة به لا محالة ،
نخرج مهرولاً إلى باب الطريق وهو يصيح : « أنا
في عرض ملك الانكليز »

وما كادت هذه السكامة تبلغ أذان السفير حتى
كاد يجن من الغضب وأمرنا باعتقاله وصاح : « أقسم
بذقن النبي أنى أكلت في الحال ! كائزوه ! هاتوا
المقص وأحلقوا لحيته وشاربيه »

فانطلقنا وراء أغاك وجئنا به وطرحناء أرضاً ،
وقام السفير وجلس على صدره وهو يقول :
« سأكلت في الحال وحق ذقن النبي ورأس الشاه »
ثم أخذ المقص وقص لحيته وشاربيه وأغاك بك
يصرخ ويستجير . وإذا كان أغاك يستجير بملك
الانكليز فإنه فارسي قبل كل شيء ، وقص اللحية
أكبر شناعة عندنا نحن الفارسيين ذوى الشوارب
الطويلة واللاحي العريضة الرسالة

ولما رأى أغاك أن الانكليز ومليكم لم
ينفذوا لحيته وشاربيه أخذ يلعنهم هم واليوم الذى
زار بلادهم فيه . وكان حزنه أبلغ حزن رأيت منذ
رأيت حزيناً إلى اليوم

وفى صباح اليوم التالى ركب جواداً عدا به
ولا نظنه يقف فى الطريق حتى يصل إلى طهران

الفصل الثالث والعشرون

ملك الهند

فى اليوم الذى عاد فيه السفير من مقابلة الملك
زارنا أناس مختلفو الدرجات . وكان غرضهم الأول
من الزيارة ترك قطع صغيرة من الورق عليها أسماءهم
ومحل إقامتهم ، والانكليز بعثقدون أن ذلك تكريم
لنا وقد عجبتنا من ترك هذه الأوراق التى لا يرجى
منها أى نفع

ولكن المترجم أكد لنا أن كل ورقة من
هذه الأوراق تعد فى مقام زيارة . وقال : إنه إذا
كانت الزيارات فى انكلترا مثلها فى فارس بمعنى أن
الرجل يبعث برسول يعان أنه قادم ثم يذهب بعد
رجوع الرسول ويمكث عند المزور حتى يدخن
ثلاثة غليونات ويشرب فنجانين من القهوة ، فإن
أعمار الانكليز ما كانت تتسع لزيارتهم وأعمالهم
ولما سأله السفير عن الطريقة التى رد بها هذه
الزيارات قال : إنه سيطبع له مثل هذه القصصات
ثم يذهب معه لتوزيعها على بيوت الناس

فضحك السفير ملء شديقه . ولشد ما كان
سروره عند ما رأى اسمه مطبوعاً باللغة الانكليزية
وعلى الأوراق الصغيرة التى جاء بها المترجم
وزارنا أناس آخرون يحمل كل منهم دفترأ فيه
توقيعات أناس مختلفين ، وطلب إلينا أن نوقع على
دفتره وأن نعطيه (بقشيشاً) كالأنراك ، ونحن
لا نعرف مهمة هذا الرجل ولا فائدة دفتره . وجاءنا
رجل آخر يطلب البقشيش لأنه قد أجزاس الترحيب
بنا يوم وصولنا . وما كنا نعرف أن الأجزاس تدق
للترحيب فهى فى بلادنا تدق لمسير القوافل ، وهى
فى بلاد النصارى تدق للمعبادة . ولكننا أعطيناه على
كل حال ما أراد

ثم جاء رجل آخر يقول إنه مندوب جريدة
وأن مهمته أن يسجل أسماء الذين يزورون قصر
الملك وينشر هذه الأسماء فى ورقة كبيرة بيدهما ،
ولا أعرف لماذا يشتري الناس هذه الأوراق ؛ وقال
إن مهمته اختيارية فلم يكلفه أحد بها ، وأن من يدفع
له مالاً يكافأ بكتابة اسمه فى الجريدة . ومن لا يدفع
يعاقب بإهمال اسمه ، فدفع له السفير ما أراد

وهذان المكان من أعضاء هذا المجلس ، والحق أن هذا الكلام لم يمجبنا ولم نفهمه ، والذي استطعنا أن نتقنع به هو أن الشاه الحقيقى فى الهند هو الانكليزى الذى يقولون عنه نائب الملك وأن هؤلاء الملوك ليسوا إلا سفراء له لدى الحكومة الانكليزية مثل فيروز خان سواء بسواء . ولما سألنا عن دينهم فهمنا أنهم يعبدون الشمس والثيران وبأكلون لحم الخنزير

الفصل الرابع والعشرون

ملكة الانكلتريز

أصبحت الهدايا التى أرسلها السفير إلى ملك الانكلتريز موضوعاً لحديث أهل المدينة . وعلمنا أن نساء الأمراء واللوردات ذهبن إلى الملكة ليرين الشيلان والجواهر والمصوغات التى أهديتها لها . وعلمنا أن فى القصر الملكى رجلاً برتبة تعادل رتبة خان يودى وظيفة التشرىفاتى الملكة فلا يقابلها أحد إلا بإذنه ، فهو ليس مثل الأغا فى القصر الفارسى وقد وصلتنا دعوة من هذا الخان لزيارة الملكة

وقد كان سفيرنا خائفاً من الذهاب بالرغم من وصول الدعوة إليه ، وسأل المترجم : أليس الواجب أن نستأذن ملك الانكلتريز؟ فأكد له أنها تستطيع أن ترى كل من تريد رؤيته من الرجال ، وأنه لا داعى إلى الاستئذان . فلما رأى السفير أن هذه عوائدهم حقيقة قبل الدعوة التى موعتها فى اليوم التالى وأخذ الكتاب المرسل إليها من كبيرة زوجات الشاه

وقلنا نحن ذاهبون لنرى زوجة الشاه الانكليزى وبناته وأجل الجيلات فى الحاشية . وهذا الحظ لا يتفق إلا للقليلين ، فالحمد لله على ذلك . وإذا كان النساء العاديات اللواتى نراهن فى الطريق يمجبننا

وقد كانت كل لحظة تمر تزيدنا خبرة بأحوال الانكلتريز وعاداتهم ، وكلها عجيب غريب ، وكنا نتناقش كل يوم مع المترجم فى كل ما نراه . وفى يوم من الأيام جاءنا المترجم مهرولا وقال : إن اثنين من ملوك الهند سيوزراننا اليوم فكدنا نذهل ، وقلنا فى أنفسنا كيف يمكن أن يأتى الملوك للزيارة بغير مقدمة ولا سابقة إنذار . وقتنا إلى النوافذ مسرعين ونحن نتوقع أن نراها فى مواكب تركب الأفيال . ولكننا لدهشتنا رأينا عربية قدرة فيها رجلان ليس معهما حاشية ولا جنود . وسألنا المترجم كيف يمكن أن يكون هذان الرجلان من الملوك ، فقال إنه من الصعب تفسير الأمور فى وقت قصير وأنه سيشرحها لنا بعد انقضاء الزيارة

وأدركتنا الحيرة فى الطريقة التى يجب أن نستقبلهما بها ؛ فلما جاء انفضح لنا أنهما فى نهاية البساطة ، ولا فرق بينهما وبين أى سوقى فى بلادنا ، وهما يحلقان ذقنيهما كالكفار ويلبسان ثياباً عادية وليس عليهما أى مظهر من مظاهر الوجاهة

ولما انقضت الزيارة نظرنا من النافذة فلم نجد العربية فى انتظارها ويظهر أنها عربية كراء . وسار الملكان على قدميهما ، فقلنا سبحان الله ! أهكذا يكون ملوك الهند القديمة التى يرجع إليها عهد حضارتنا ... الهند ذات الجواهر والأفيال يحكمها أمثال هذين المتشردين !

ثم قال لنا المترجم إن ملوك الهند ليسوا مثل سائر الملوك فإن إيراد بلادهم يأخذه الانكلتريز ، وهم مرؤوسون فى الهند لرجل انكليزى ينوب عن ملك انكلترا وهو مرؤوس هنا لوزير انكليزى لقبه وزير الهند . ولهذا الوزير مجلس يحضره ملوك الهند

لقد أجاب بأن الخطاب حرره منشئ الدولة
فلما ترجم هذا القول للملكة ابتسمت، ولكننا
لم نفهم هل كان ابتسامها ابتسام إعجاب أم سخيرية ؟
نم عرفت عليها الهدايا فلم يستلفت نظرها
بوجه خاص إلا ثياب المرأة الفارسية ، وهي حقاً
جديرة بالإعجاب ، فهي مطرزة بالذهب المرسع بالأحجار
الكرمية . وأخذت الملكة تسأل عن أشياء كثيرة .
 واجتمع سيدات القصر حول السفير وهو يشرح
للملكة كيف تلبس السيدة هذه الثياب ، وأبدى
ملاحظات كثيرة عن القميص القصير والحبة
النسوية . وقد ضحك كثيراً بالرغم من وجود الملكة
بينهن عند ما رأين أجزاء من الثياب مخبى بالقطن
ليظهر مادونها من الجسم كبير الحجم . وأعجبت
الملكة بمعرفة الفارسيين وحكمتهم عند ما قدم إليها
السفير النصوص التي تمنع السحر والعين والنصوص
الأخرى التي تمنع الأمراض والتي تجبر الكسر
في أقل من شهر

واقعة استرعت الملكة اهتمامنا بكثرة أسئلتها
حتى شغلتنا عن النظر إلى بناتها الجميلات اللواتي
تأنس العيون برؤيتهن ويستمتع الخيال بالتفكير فيهن .
والحق أي لم أرى عيوناً أشبه بعيون الغزلان من
عيون هؤلاء الأميرات ولا أجساداً أشبه بالحرير
من أجسادهن

ولما فرغت الملكة من أسئلتها بدأن يسألنا
أيضاً ، وكنت كلما وقع نظري على إحداهن أقول
في نفسي : « ماشاء الله ! عوذت جمالك من عيني
باسم الله ! » وأتساءل كيف يرضى رجال هؤلاء
الجماليات بسفورهن ، ونصر نحن على إخفاء أوجه
نساتنا ؟ وقد سألتنا الملكة هل بناتها متزوجات

وبقتلنا كل يوم بروعة جمالهن فكيف تفعل بقلوبنا
التي سبت قلب شاه الفرنجستان ؟ إن نظرة واحدة
إليها وإلى الأتمار اللواتي حولها ستفتننا وتصبينا
لبس السفير أجل ثيابه ومشط شعر رأسه
ولحيته وتطيب بالمسك . وفعلت مثل ذلك ورفعت
شاربي حتى وصل طرفها إلى عيني . وسكنت في
الماء الذي اغتسلت به زجاجة من ماء الورد . وركبنا
إلى القصر الملكي فلم يقابلنا إلا الرجال . ولم يبد أي
دليل على أن المنزل نساء

وأجلسنا في ردهة مفروشة بأبدع الرياش .
وبعد انتظار لحظات ظهرت الثياب النسوية تخطر
فيها الجيلات عن بعد وبينهن أمير من أبناء الشاه
ولما وقفنا وتهبأنا لاستقبال الأميرات والأمير
تبين أنهن وإياه في جملة الخدم وأن الأميرات لم
يظهرن بعد

واقفنا من مسالكنا أشد الخجل وعدنا إلى
الجلوس ؛ ثم ظهر نثر يفاقي الملكة ومعه امرأة عجوز
قال إنها هي صاحبة الجلالة فدهشنا ، لأنه ما الذي
يحمل جلالة الملك على البقاء مع عجوز كهذه وفي
بلاده آلاف من الصبايا الجميلات ؟ ولقد كانت
نظراتها كنظرات الوزراء لا كنظرات النساء ، فلا
رقة ولا دلال ولكن سطوة وهيبة . وسألت
السفير أسئلة لا يلقى مثلها إلا العلماء ، فهي أسئلة
صعبة جديرة بأن نعجز العالم الحصيف

ولما قدمنا لها خطاب كبيرة زوجات الشاه
سألت هل هذا الكتاب مكتوب بخط يدها ؟
فرأيت علامات الخجل على وجه السفير لأن الكتابة
ليست من شئون السيدات في فارس فهاذا كان
يستطيع سفيرنا أن يجيب ؟

ولما قمنا كانت الملكة في نظرنا أكبر كثيراً مما كنا نظن قبل أن نحادثها، وكان كل يوم يمر بنا يعلمنا شيئاً . وما كان غامضاً أمامنا في شأن النساء أصبح الآن واضحاً جلياً

الفصل الخامس والعشرون

الصلوة والمأكل

شغلنا عن نزورهم ويوزورنا حتى كدنا نأسي أننا مسلمون وأتينا نعيش في بلاد غير مسلمة ، وأهملنا الوضوء والصلاة بالرغم من أن محمد بك كان ينهنا كل يوم إلى هذا الواجب . ويؤنبنا على تركه ويحذرنا من أن نصبح مثل الذين يعيشون حوانا ، والذين لا يبدو عليهم أنهم يدينون بأى دين

وكان محمد بك مشتغلاً بالبحث عن الاتجاه الصحيح للكعبة الشريفة ، لأن مباحثته منذ وصلنا إلى انكنا لم تقنعه . وكانت الأبرة المنطسة « البوصلة » قد كسرت منه . وأية فائدة ترجى من الصلاة إذا كانت وجوهنا مولاة نحو بقعة قدرة من الأرض لا نحو الكعبة المطهرة ؟

وكان من سوء حظنا أيضاً أننا لم نر الشمس مرة واحدة منذ وصلنا إلى هذه البلاد فتحقق لدينا ما كنا نسمعه في فارس من أن بلاد الانكنا لا تزورها الشمس

والا كاد بيأس من معرفة القبلة وكنا جالسين مع السفير أقبل علينا محمد بك وهو يصيح : خبر سار ! لقد ظهرت الشمس . فأطلنا من النافذة ورأينا السحاب خفيفة في شكل بخار ومن ورائها قرص الشمس ولكنه ليس مشرقاً كالشمس التي تظهر في سماء فارس ، فان الأخيرة لا يجرؤ إنسان

فأدهشنا حين قالت أنهن لم يتزوجن إلى الآن . وأنى لأعجب من تأخر زواجهن وهن بنات الملك مع أن من تبلغ هذا العمر في بلادنا تمد باثرة ؟

وقال السفير للمترجم : « لماذا لا يفعل شاهكم مثل شاهنا فينعم على وزرائه ببناة ؟ إن أكبر مكافأة عندنا للوزير أن ينعم عليه الملك بعرس من الأسرة المالكة ، وإذا لم يسجد الوزير شكراً للشاه على هذه النعمة فان رأسه تجمل في الحال مكان رجله . والحق أن ملوكنا يديرون هذه الشئون أحسن مما يديرها ملوككم

ولما استقصينا في السؤال وجدنا أن الزواج في الأمرات المالكة أقرب إلى الزواج عند المسلمين منه عند النصارى ، لأن المحبة ليست شرطاً في الزواج ولا ضرورة لسابقة المقابلة . ويكفى أن يقول الملك لبنته إنها أصبحت زوجة لأمر ما فتقبل طائفة أو مكرهة ، وهذا الزواج عندهم يدعو بالزواج السيامى والحالة مثل هذه مع الزوج من البيوت المالكة

وهمس السفير في أذن المترجم سائلاً : أليس في هؤلاء السيدات جارية رقيقة للملك فربما كانت الرقيقات توجد سرّاً في قصور الملوك دون غيرهم ، فعاد المترجم إلى التأكيد باستحالة وجود الرقيق في هذه البلاد

سأله السفير : أليس فيهن سرايات أو راقصات أو خادمات سرير أو مصائف حمام . فأجاب المترجم بالسلب وهو يبتسم ثم قال : إن هذه الضروب من النساء لا توجد إلا في القصور الملكية . وإن الرقص في انكنا يخالف الرقص في فارس ، ففي انكنا يرقص الرجال مع النساء ولا تأخذ الراقصة أجراً ...

باسم الله على قارعة الطريق ليفهم الانكيز أننا لا نأكل لحم الحيوان الميت كما يأكلونه، واطمأنت قلوبنا إلى الطعام الذي نأكله أكثر من أى وقت آخر منذ غادرنا البلاد الاسلامية . وصار المؤذن ينادى فى أوقات الصلاة بالأذان الاسلامي . وقال محمد بك إن الصلاة فى هذه البلاد غير الاسلامية أقل بركة منها فى بلاد مسلمة . وأشار علينا بأن نضاعف عدد الصلوات حتى يقبلها الله من هذه الأرض غير الطاهرة

ولكن ملاحظته هذه منعت أكثرنا عن الصلاة بتأننا ، وقلنا إنه ما دامت البلاد نجسة فما فائدة الصلاة فيها ؟ إذن فلنوفر صلاتنا حتى نعود إلى فارس

وعلى ذكر الصلاة أقول إنه من اليوم الذى ظهرت فيه الشمس فى بلاد الانكيز أمكننا أن نضبط ساعاتنا على الحساب العربى لأننا جعلناها اثنتى عشرة عند الغروب . ومواعيد الصلاة الأخرى معروفة ببعدها وبقربها من هذا الموعد . أما الانكيز فشكل شئ عندهم عجيب . والساعات عندهم لها حساب آخر حيث يبدأ يومهم من منتصف النهار اجترأنا على السير بغير دليل فى طرقات لوندرا بالرغم من استغراب الناس هيئة ثيابنا وتعجبهم منا ، فأننا كنا نبعد كثيراً عن مكان السفارة . وكثيراً ما ضللنا طريق العودة لأن الطرق عندهم كثيرة الشبه فشكل البيوت مبنية على نظام واحد . وكل الشوارع باتساع واحد وطول واحد ، ولكننى اهتديت إلى طريقة نأمن بها الضلال فى أى طريق وذلك أنى كنت أحمل معى قطعة من الطباشير فأضع على كل ركن علامة أهتدى بها فى طريق العودة

على التحديق فيها . أما تلك الشمس الانكيزية فان الانسان ينظر إليها ساعة أو ساعتين دون مبالاة كما ننظر فى بلادنا إلى القمر . واسكننا مع ذلك استبشرنا بطلمتها وأخذ بعضنا ينظر إلى البعض ويقول : « مبروك » وعرف محمد بك بالدقة موقع الكعبة :

لكن هذا الحادث دل على أن الانكيز يجهلون كل شئ عن ديننا ، فان الموجودين منهم فى مجلسنا فهموا من فرحنا بظهور الشمس أننا نعبدها . وقال أحدهم ذلك للسفير ، فغضب والتفت إلى وقال : « ما لهؤلاء الانكيز كيف يفهمون ؟ إننا لو كنا نعبد الشمس كما يتصور ، فأننا نستنكف أن نعبد شمسهم هذه التى لا يقوى نورها على اختراق السحاب » والتفت إلى المترجم وقال : « أخبر هذا الميرزا بأن الله لم يرسل نبينا إلا لمحاربة الوثنية »

لكن هذا الميرزا الانكيزى لم يقنعه الجواب وأخذ يجادلنا مستشهداً بتاريخ فارس قبل الاسلام وقد تبين من مناقشته أنه بظن أن الفارسيين لا يزالون على عقائدهم القديمة مع خلاف يسير أدخله المسلمون فى بلادهم . وسألنا أسنانا نقطع رؤوس الخيل تكريماً لظهور الشمس ؟

فقال السفير مازحاً : « لو كنا نفعل ذلك فى شمسنا الحارة فأننا فى بلادكم لا نقطع إلا ذبول الخيل وقد لاحظنا أن الانكيز لا يفضيئون من المزاح فان هذا الميرزا الانكيزى ضحك وقال إن الشمس جديرة بأن تعبد على كل حال

ولما رأينا القوم يجهلون ديننا أصررنا على أن نبأشر أمور الدين علانية ليفهموا أننا متدينون وأن ديننا محترم ، وعلى ذلك صار أتباعنا يذبجون الدبائح

وشتر عن ذراعيه . وقد فهمت أن حركته هذه
عدائية ، بالرغم من أن نزع القبعات علامة على الود
بين هؤلاء القوم

وفي هذا الحين مرّ مترجم السفارة فنادبته
ليترجم بيننا وبين هذا الرجل . ولشد ما كانت
دهشتي عند ما رأيت مترجماً الانكليزي وقد خلع
سترته وقبعته أيضاً وشمر عن ذراعيه ، وتلا كما ملاكمة
دلت على الشجاعة من كليهما . فلما تمكن المترجم من
إصابة الآخر في وجهه تصالحا وكأنه لم تكن بينهما
حالة عدائية ، وأفهمنا المترجم أنه إنما فعل ذلك بالنيابة
عنا ، فشكرناه . وقد كنا نسمع عن كرم العرب في
قرى الضيف ولكننا لم نسمع أن أحداً يلاكم
الناس بدلاً من ضيوفه . وهكذا قدر لمحمد بك أن
يضرب ولكن على جسم المترجم

وعدنا دون أن تتمم الصلاة إلى دار السفارة
وأخبرنا السفير بما حدث فدهش من أخلاق المترجم

الفصل السادس والعشرون

البرلمان الانكليزي

في ذلك الوقت كان في المدينة حركة غير عادية
لم يبق فرد واحد من الانكليز لم يهتم بها ، نفلت
البيوت من فيها وازدحم بهم الشوارع حتى صار
من الصعب أن يجد المرء لنفسه مكاناً بين الطرقات .
فذكرتنا هذه الحالة بعودة الشاه إلى طهران من
غزوة أو رحلة طويلة . وسألنا عن السبب فسمعنا
إجابات مختلطة

قيل لنا إن أكبر مجلس في الدولة سيعقد اليوم ،
وقيل إنه بالرغم من أن البلاد ألف كتاب وكتاب
في القانون فانهم لا يزالون بحاجة إلى قوانين

وفي يوم من الأيام خرجت مع محمد بك وهو
كما عرف القراء شديد المحافظة على شعائر الدين .
فلما وصلنا إلى حديقة عامة في ضاحية من ضواحي
المدينة ، وقف على الحشائش الخضراء ودعاني إلى
الصلاة . وكانت الحديقة غاصة بالنادين والرمحين إذ
يظهر أن ذلك اليوم كان عيداً من أعيادهم

فلما نادى محمد بك : « الله أكبر الله أكبر قد
قامت الصلاة » اجتمع حولنا كل من في الحديقة
وأخذوا يحملون فينا ، فلما بلغنا من الصلاة
السجود أخرج كل منا قطعة من الطين طاهرة من
أرض (كربلاء) ليضع فوقها جبينه . والقراء
يعرفون أننا معاشر الفارسيين لا نسجد فوق كل
أرض . ولذلك يحمل كل منا في جبينه قطعة من
أرض كربلاء التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما
السلام ليسجد فوقها . وهذه القطعة تصب بشكل
جميل وتكتب عليها أسماء الأئمة الاثني عشر

وإني أعترف لك بالحقيقة فأقول إنني غير شديد
الحرص على الصلاة فأنا لا أصلي إلا إذا كنت في
خطر ، وإلا إذا رأيت من حولي ينتظرون مني أن
أصلي . ومن أجل هذه الحلة كان سروري شديداً
بالصلاة أمام هذا العدد الجم من الناس

لكنه لما عدنا إلى الوقوف بعد السجود تركنا
قطعتي الطين على الأرض لنعيد السجود عليهما في
الركعات التالية . وبلغ من وقاحة أحد المتفرجين
أن مدّ يده فأمسكها وأخذ يربها من حوله ، وهو
نصراني نجس ، والقطعة طاهرة مقدسة ، فلم يكن في
وسع محمد بك إلا أن خرج من الصلاة ولطمه على
وجهه . وخرجت أنا أيضاً من الصلاة وانتظرت
ماذا يكون ، فرى الانكليزي قطعة الطين وخلع سترته

إن المجلس إذا لم يرض عن هذه الخطبة فإن الملك يكون مضطراً عندئذ إلى طرد وزيره
وصلت الدعوة إلى السفير لحضور هذا الاجتماع
قبلها مسروراً . ولكن الدعوة كانت قاصرة على
اثنين فقط هو ومترجمه . ولذلك حرمت أما وسائر
أعضاء السفارة من رؤية هذا الاجتماع . واكتفينا
بأن نقف في الطرق لنرى موكب الملك وهو سائر
إلى هذا المجلس . وما كان أنعم هذا الموكب ! لقد
كان فيه كل القواد والوزراء ونجبة من كل فرقة
عسكرية برية أو بحرية . ولا أعرف كيف يمكن
التوفيق بين إجلال الملك بإظهار الولاء له وبين
اضطهاده ومحاسبته على النفقات وحرمانه من سلطة
الحكم ؟

وقفنا تحت ظل شجرة ، وكان الزحام حولنا
شديداً فاسترعيينا أنظار الناس حتى انصرف الكثير
منهم عن النظر إلى الموكب إلى النظر نحونا
وقبل ظهور الملك سمعنا هتافاً غريباً يشبه نواح
النساء عندنا، واسكتنا فهمنا أنهم يريدون به التحية .
والغريب أن هذا الشعب متفان في حب ملكه وأنه
في الوقت نفسه لا يريد أن يترك له شيئاً من الحكم
ولما لم تبق إلا خطوات على عربات الملك صعدنا
على الشجرة متسلقين لنتمكن من مشاهدته فأسرع
الناس إلى إنزالنا وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه لولا
أن أحد الواقفين عرفنا — على ما يظهر — فشفع
وقال إنه مهما يكن ما نفعله فإنه صادر عن الجهل ،
ثم شيعنا إلى المنزل وأقنعنا أن الذي فعلناه أمر
كبير في هذه البلاد . وسألناه لماذا يعامل الانكليز
هذه المعاملة ؟ فقال إن الشعوب لا تدرك الحقائق
كما هي فاذا حارب الجيش وانتصر نسبوا ذلك إلى

جديدة . وقد حمدنا الله عند ذلك على كمال ديننا فإنه
ليس لنا إلا قانون واحد هو القرآن وليس فيه
تفريط في شيء . فلستنا في حاجة إذن إلى أي قانون
آخر . وقيل إن هذا المجلس سيجتمع ليحاسب
الشاها الانكليزي ووزرائه على النفقات التي ينفقونها .
والحق أنه لو اجتمع في بلادنا أناس ليحاسبوا الشاه
على نفقاته لنعصت لهم المشائق ... وقيل بل اجتمع
هذا المجلس للبحث في مسألة ما زالوا يبحثونها منذ
مائة عام دون أن يتقدموا خطوة واحدة ، وهذه
المسألة هي هل تبقى إيرلندا خاضعة لحكم الانكليز
أم يتركونها ؟ وإيرلندا هذه جزيرة أخرى تريد أن
تنفصل عن حكمهم وهم لا يقررون تركها أو البقاء
فيها بل يجتمع مجلسهم منذ مائة عام للنظر في هذا
الطلب . وفي هذه الجزيرة سبعة ملايين من الناس
يعوتون وينشأ بدلهم مثل عددهم وهم راضون عن
إرجاء طلبهم كل هذا الأجل . ونحن لا نعرف لماذا
يسلك الانكليز أو الارلنديون هذا المسلك ؟

وقد عول السفير على أن يعرف عن هذا المجلس
كل ما تستطيع معرفته ليكتب عنه إلى الشاه ليذكر
الفرق بين قوة سطوته وضعف الملوك في الفرنجستان
وأني لأعجب كيف يستطيع القضاء مباشرة
الحكم مع كثرة هذه القوانين ! وهل إذا انتقل قاض
من بلدة إلى بلدة يأخذ معه عشرين أو ثلاثين رجلاً
محملة بالقوانين

وإني لأتساءل أيضاً ما فائدة الملك وما الحكمة
من وجوده إذا كان لا ينفق شيئاً إلا حاسبه الناس
على ما أنفق ؟ وبالرغم من هذا المسلك السيئ الذي
يسلكه المجلس مع الملك فقد علمنا أنه سيذهب عند
انعقاده راضياً ليلقى فيه خطبة العرش . ويقولون

ولما عاد السفير من حفلة افتتاح البرلمان وصف لنا هذه الحفلة فقال: ان الملك ظهر في حلة مزركشة بالذهب وعلى صدره النياشين المجوهرية ، وكذلك كان وزرائه وأصحاب الألقاب ، وكانوا كلهم حايق اللحي والشوارب كأنهم نساء . وأقسم أنني أحببتهم جميعاً وأن جلودهم أبيض من الثلج وعيونهم تقفل وابتساماتهم تفتن وتسحر

وقد كان بين المنفرجين سيدات لا أستطيع وصفهن . وبالرغم من معرفتنا بسفيرنا معرفة جيدة فأننا لم نسمعه قط يشكك بمثل هذا اللسان . وقد كنا نسمع أنه إن أحب فالنار تشتعل عندئذ في فؤاده وقد قال أحد شعرائنا متى أحب الانسان فانه يفيض رقة ولو كان من أغلظ الناس . وأقسم أن السفير عاد من حفلة افتتاح البرلمان وعيناه تنطقان بالركة والوداعة

عبد المظيف النشار

« شيع »

الملك ، وإذا غلا الخبر نسبوا غلاءه إلى الملك ، وإذا نشبت الحرب نسبوها إلى الملك . ولذلك كان واجب الحكومات يقضى بالحرص على عرش الملك ويمنع حدوث الثورة ، وذلك إنما يكون بجعل سلطة الملك محدودة واضحة الحدود فلا ينسب إليه ما لا يمكن دفعه من الطوارئ وما ليس يجوز أن تنسب مسئوليته إليه

قلت : « هل ترى لحيثى هذه ؟ »

فقال : « نعم »

قلت : « إذن فأنا أقسم بها وما أقسم بشيء أقدس منها ، إننا لو وضعنا شاهنا في مثل هذا المركز الذى وضعتم فيه شاهكم لحدثت مذبحة عامة لا يمكن أن تنتهى بخير »

فقال : « إن من الخطأ أن توازن بين انكثرا

وبين إيران »

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوديسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلد في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجره البريد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالانعام الاربعة

٥٠ السنة الاولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجره البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد